فعمدت إلى وسيلة أخرى . . فقد كنت آخذ معي بعض الحلوى وأعطيها إياها من وراء ظهري ، وأنا أجري بجانب خادمتي ، فتأخذها مني .

وكثيراً ما كنت ألفت نظر ميلي الى شعرها المنتفش وأزرار ثوبها المنزوعة ، ناصحة إياها بالنظافة والترتيب . فتمحي رأسها ويتولاها الخجل . ثم تظهر أمامي في اليوم التالي وقد زاد تناحها ، لان الحياة التي كانت تتبعها ميلي ، كان من الصعب معها ان تكون مرتبة المنظام . . فانها مهملة من أهلها ، تقضي أوقاتاً طويلة إما في العراك مع صبية الشوارع . . وإما في الركض في الحقول ، وتسلق الأشجار . أي انها شبه حيوان أليف . ولم تكن تعرف القراءة ، لانها لم تتردد على المدرسة . ولكنها كانت تعرف الحشائش ، وما ينفع منها للزكام ، وما يشفي الأوجاع ، وما يلتئم الجرح سريعاً . فكانت تجلب منها الكثير للمطبخ عندنا . . كما تجلب الجرجير والهندبا البرية ، وطاقات البنفسج الكبيرة ، والخشخاش وزهر القرلو .

كانت تتحمل شتى الأسباب لكي تدخل الى القصر . . فتجوم حول المطبخ تلتقط الأوامر ، وتتفلتها في لمح البصر . ولكنها لا تنصرف بذلك ، بل تبقى مختبئة في بعض الأركان ، وتتسلل بأذنها عني . فاذا اهتديت اليها في الحديقة ، أظهرت لي تنسها من بعيد ، ولكن في خجل . فأشير إليها أن تقترب . . وعندما تسرع اليّ والفرح يشعّ في عينيها ، وهي تقول : آوه ! يا آنسة ! يا آنسة ! . . . »

ونجلس على مقعد تحت تعريشة العنب ، حيث تبقى هناك مختبئتين ، نتكلم ونلعب كما تحلو لنا . كانت ميلي فتاة بارعة ، فعلمتني كيف تصنع الشيحان من مختلف الأزهار . كما كانت تأخذ مني قصاصات الأقمشة والشرائط وتصنع لي منها العرائس الجميلة التي كنت أراها تضاهي ما تبيعه المحلات الكبيرة ، في هندامها الجميل .

ومن المدهش ، ان ميلي تلك الفتاة الفقيرة ، لم يكن يطيب لها أن تأكل في بيتها أكلة لذيذة ، دون أن تأتيني بنصيبي منها ملفوفاً في ورقة نظيفة . ولن أنسى شكلها المضحك ، وهي تنظر اليّ بذهول . . وقد ظهر عليها الكبرياء والسرور ، وأنا ألتهم فطائرها التي بسطت عليها طبقة سميكة من البقاصم المهروس ، المحلى بالسكر أو المتبل بالبهار والبصل

الأخضر . وكنت استمرئ فطائر المطبخ الفقير ، أنا التي كنت صبية قليلة الأكل ، يزجرني أهلي لهذا السبب .

كانت ميلي ترمي اليّ بنوع من التأمل : فقوتها ونشاطها وحرّيتها . . كل ذلك كان يدهشني . وكنت أحسدها لأنه في استطاعتها أن تجوب كل مكان ، وأنها لا تخاف من شيء . كانت في بعض الأوقات تتصاعد منها رائحة العلف ، وقد تعلق بشعرها منه بعض القش ، فتجعلني أحلم بحياة أخرى ، بين الحقول التي كان يحياها روبنسون . ولما كنا نتأكد من وحدتنا في الحديقة ، كانت تتسلق الأشجار وتهز أغصانها فتمطرنا فاكهة ناضجة . كما كانت تقتلع بقبضتي يديها ، الفاكهة الخضراء . . لأنها كانت تحبها وتؤكد لي أنها لذيذة . . وأردت أن أشبه بها ولو من هذه الناحية . . فكنت آكل معها قضمة من التفاح الأخضر وغيره . وأذكر أني قلت لها يوماً : « إنّ أشجار الكرز عندنا تطرح متأخرة . . وهذا ما يؤسفني لأني أحب هذه الفاكهة » . وبغتة نبتت في اليوم التالي وملء جوفتها كرزاً جميلاً ! إنها سرقته من بعض الحدائق . لقد سرقت من أجلي وعرّضت نفسها للهلاك !

وأول ما كانت ترى فرداً من القصر آتياً الى جهتنا — ما عدا خادمتي والطباخة فانهما صديقتاها — كانت تتواري بشكل عجيب . . فلا أعلم كيف اختفت ، ولا من أي ثقب من السور خرجت .

وأدهن الأيام عند ميلي هي عندما كان يزورني صديقاي الصغار ! كانت المسكينة تحوم حولي ، فأمر عليها دون أن أكلمها أو أظاهر أني أعرفها . . وعندها تختفي كآبة . ثم شيء آخر كان يسبب لها الحزن : فعندما كان أبي يصحبني وأخي الى منزل لنا في الضاحية ، وسط عربة صغيرة ، كانت ميلي تتبعنا عن بعد . ولكن أبي كان يطردها بصوت خشن .

وحدث يوماً ، أنه عندما اقتربنا من العربة ، رأيت ميلي وقد تعفرت بالتراب ، وهي تخرج من حفرة كانت ممدّدة فيها ، لكي ترأى حين مروري . . وكم كانت ترتعد من الخوف عندما رآها أبي . فقلت استعطفه :

« أبي ! أرجوك أن تتركها تمشي وراءنا . . وهل هذا يسبب لنا ضرراً » وقبل أن يتركها تمشي وراءنا . فكانت ميلي فرحة مسرورة ، وهي تتأثر حذاي كالكلب الأمين .

وكنت من وقت لآخر، أمد يدي الى الوراء، فتأخذها بين يديها وتقبلها لحظة، ثم أسحب يدي.

وبعد انتهاء الغداء، تسللت خفية وأخذت كل ما وصلت إليه يدي من المأكولات وخرجت إلى ميلي. فوجدتها واقفة خلف الباب، وأعطيتها ما معي فتقبلت ذلك مني بالفرح الشديد وهي تقول: «آوه! يا آنستي، يا آنستي!»

ثم جعلت ألعب مع شقيقتي تحت الأشجار التي تحيط العزبة. ولكنه تركني فجأة. وبعد قليل سمعت صراخاً، فجريت الى ناحية الصوت. ورأيت ميلي المسكينة، أمام الاسطبل وقد تبللت حتى ركبتيها بالمياه التي كانت تتساقط من ذيل نوبها، فان الولد الشرير غطسها فجأة في مزود البهائم، الذي ملأته مياه الأمطار. وكانت ميلي تبكي وترتجف، ولكنها حبست دموعها عند ما رأتني.. فهي لا تريد ازعاجي. وقالت لي وهي تبتسم:

«هذا لا شيء يا آنستي.. إنه يريد مداعبتي فقط..»

* * *

وأراد أبي أن تقضي العيد في بيتنا الريفي.. وسعدت ميلي بذلك، غير أنها لم تتأثر خطاي يوم وصولنا. ولكن كم دهشت وأنا أرى ميلي تنتظرني في حفرتها، على حافة حقل الشعير وذاب قلبي شفقة عليها وأرسلت لها قبلة... وللأسف إني مرضت في العيد، ولزمت فراشي وكنت أسمع وأنا أتقلب في السرير، ضجة الأصوات والضحكات فان الأسرة مجتمعة لتناول طعام الغداء، بمناسبة العيد.

ولكني لم أكن وحدي في الحجرة، فهناك ميلي وقد خرجت من مخبئها، بعد أن اطمأنت. وها هي تجلس بين يدي أزهاراً ندية، وقد وكنت بالقرب من سريري.. ووضعت جيتيها على طرف سريري. وبعد لحظة، أتى أبي ليراني.. ولكنه في ذلك اليوم، لم يجد من الشجاعة ما يجعله يطرد ميلي، بل انه أمر أن يؤتى لها بالطعام.

* * *

وبعد مدة من الزمن، رأت والدتي أن أتعلم كل ما يجب أن تتعلمه سيدة ربة بيت. فعهدت بي الى الآنسة برجريت، لتعلمني الحياكة وتدربني على الأعمال المنزلية. ولكني كنت أهوى شيئاً آخر: القراءة. ولحسن الحظ أن ميلي كانت قد توصلت أخيراً، أن تجعل جميع من في القصر يحتملونها. فكانت تحضر دروسي، ولعلمت قبلي بكثير رغبة منها في مساعدتي. وكانت هي التي تقوم بالأعمال الصغيرة، التي يفرضونها عليّ. كما كانت ترتب حجرتي.. بينما أكون أنا لاهية في القراءة. كنت أقرأ حياة القديسين وتاريخ رومانيا للكاتب

« رولان » ثم كتاب آخر لست أعلم الاّ أنه مجلدة حمراء قديمة يحوي قصص القرن الثامن عشر . وعند ما كانت ميلي تنتهي من حلها ، كنت أقص عليها ما قرأت ، مكافأة لها . فتسمع اليّ وقد جلست على الأرض عند قدمي ، وثبتت عينيها على وجهي ، وأذكر أن إحدى هذه القصص ، كانت تبتدىء بهذه الجملة : في زمن حيث كانت مدام دو پومبادور ، تسود فرنسا » . ولست أعلم كيف كانت مدام دو پومبادور ، تبدو لميلي . ولا لي أنا نفسي . انما أذكر انها كانت قصة جميلة .

***

ومرت أيام ثم مرضت بالجدري . وأذكر الآن ميلي التي لم تفارقني طول مدة مرضي . فهي التي تصنع لي الشراب ، وهي التي تأخذ يدي بين يديها برفق ، ولكن بكل قوتها لتمنعني من كحط جلد وجهي ، فقد قيل لها : اني لو أكحط وجهي صرت بشعة الخلقة . وهي تسهر على جمالي كما يسهر الحريص على كنزه .

لقد فعلوا كل شيء لابعادها عني ، خوفاً عليها من العدوى ولكنهم لم يفلحوا واستمرت ميلي لا تفارقني لحظة . وعندما تحسنت صحتي ، وكنا في شهر ابريل ، فكانت ميلي تجلب لي كل يوم ملء ذراعيها من الأزهار الجميلة ، وكنت في هذه الفترة ، أجد صعوبة في استذكار الماضي . فأسأل ميلي : « أيمكن لك أن تقصّي عليّ تلك القصص التي ووجهها لكم ؟ فقد حرّموا عليّ القراءة » . فتقص عليّ جميع القصص التي تحفظها مني .

***

وذات يوم ، لم تحضر ميلي ، وكان أول يوم صح لي فيه مفارقة الفراش . فسألت عنها أمي بالحاح .. وأخبرتني أنها مريضة ، وفي اليوم التالي تعلوني الى الريف . والتف حولي الجميع يحترن عما يسرني ويسليني وكان أبي يصرف الساعات الطويلة ، بالقرب مني ويصحبني في نزهات جميلة . غير اني لم أنس ميلي . فكنت أسأل عنها من وقت الى آخر . وقال لي أبي أخيراً :

« ميلي مريضة جداً . ولكني أوصلت اليها الطبيب وكل ما يلزم لعلاجها . وسوف نرينها متى شفيت » .

ولكن مرّت الأيام ولم تأت ميلي . وقلت يوماً لأبي : كيف حال ميلي ؟ أريد أن أعلم » فأجابت أمي بحزن : « لقد ماتت ميلي ! » وتولاني الذهول . ثم قلت والدموع على عيني : « مسكينة ميلي ! سوف لا أراها . ولكني سوف لا أنساها ! » .

تلك هي ميلي ! المخلوقة التي أحبتني . والتي أذكرها على الدوام !